من دمشق الى بغداد

(٣)

وليس للصلبة (المشار اليهم في مقتطف اكتوبر) من العاد والطباع ما يكون لسائر الاعراب الاسماعيليين وهم مسالمون لا يحاربون ولا يحاربون ولا يغزون ولا يغزون والاعراب لا يعدونهم منهم ويرون صغاراً ان ينتسبوا اليهم ويجهلون انسابهم ولا يصاهرونهم. وقد سألنا الشيخ اذعار عنهم فقال انهُ لا يعرف شيئاً عنهم الاَّ انهم ليسوا عرباً واعاد الكرة فسألناهو : على هؤلاء الصلبة لا يذكرون عندكم بالكتب ؟ فاجبناهُ بالسلب. وقد رأينا رجالهم يلبسون جلد الغزال كالجلاليب وفي ارجلهم نعال كنعال القسيين الحفاة جلد ثخين مربوط بشسوع مخروزة بالنعل المقدود على مقدار موطىء القدم. والصلبة يركبون الحمير في حلهم وترحالهم ويحملون عليها اثاثهم بخلاف سائر الاعراب

وقد سألنا صلبياً عن انساب قومهِ وتاريخهم فقال بلهجة البدوية

حنا صلبة من عُد وعُمود وقامة العمود

ثم سألناهُ ان ندخل بيتهُ ونرى متاعهُ فدخلناهُ فرأينا فيهِ عجوزاً فطلبنا منها لبناً فقالت اللبن في الصباح. واجتمع علينا اطفال منهم فسألنا العجوز عن اسمائهم فقالت : ذا رشيد وذا رشد وذا راشد وذا مرشد وهذه رشيده وذه رشيده وذه راشده وذه مرشده وكلهم اخوان واخوات فعجبنا لكثرة ما ذكرت لنا من الاسماء المشتقة من الرشاد وضحكت هي كالسلاة

والصلبة هؤلاء مشهورون بالتداوي بالكي فسألنا العجوز بذلك فقالت انا اكوي واطبب بالكي. وشاعت عنهم اخبار عن الكي يتحدث الناس بها كثيراً في العراق ويقال انهم يعالجون بالكي ما يعجز عنهُ الاطباء النطس. وقد سمعنا عن معرفتهم بمواضع الكي مالا يكاد يصدق وذكر لنا اصدقاء كثيرون ما حدث لهم او شهدوهُ من الامراض التي عولجت بالكي وشفي منها اصحابها على ايدي رجال بداة من صلبة

وسمعت شهادات كثيرين بهذا واثقين بكل ما يروى من هذا النوع من الطب وعامة العراق وخاصتهم يطرونه صلة على علمهم بالعلاج بالكي ومعالجتهم الامراض بسرعة فائقة ولكني لم اشهد شيئاً من هذا ولا ازال متردداً في الامر. ولما آذنا بالرحيل صحبنا رجل من صلبة اسمهُ سعد بن عودة وكان راكباً حمارهُ وعليهِ جلباب اتخذهُ من جلد الغزلان وفي رجلهِ نعل مكشوف فاستنشدناهُ فانشدنا هذه الابيات التي قالها فليحان شاعرهم مخاطباً بها حليس الذي كان حربا عليهم حينما اوقع السلطان عبد العزيز بهم وهي من شعرهم الحماسي قال:

يا حليس يا اللي للطرابيش توعي يا مقلطن فوق العصيب أليدام
يفدونك اللي ما بهم غير زوم تخدّمن وجيهم بالخدام
يفداك عفن ما الروحه يلوم اللي يلوم الناس وهو ما يلام

وكان ينشد ابياتهُ هذه وكأنهُ ينشدها بكل اعضائهِ

٧ مارس — اول موضع وصلناهُ جبال يسمونها جبال (الهدر) وردنا فيها ركايا اسمها (ركايا الهدر) وبعد الاستقاء سرنا مصعدين في حلب وهي آخر جبال القعراء. وطال بنا السير هذا اليوم فبلغنا (الضايع) وهو موضع فيهِ كثير من اعراب الدليم فسألنا عن رئيسهم شرقي بن عفتان فقالوا انهُ في (عانة) فنزلنا على ابن عمهِ ضيوفاً فاكرم مقامنا عندهُ وقام بواجب الضيافة وذبح لنا ذبيحة وعلقها بكاسر بيتهِ. وكاسر البيت عمودهُ المتطرف وانما علقها اشارة الى ان ضيفهُ محترم عندهُ وانهُ محرٌ لهُ وكذلك يفعلون وابى علينا ان ننصب خيامنا ودعانا الى بيتهِ الرفيع العماد الكثير الرماد الطويل الاطناب فاعتذرنا اليهِ. وحين امسينا دعينا للعشاء فذهبنا الى خباء ذي ثلاثة اعمدة يسمونهُ (منوك) وفيهِ عدة طرائق والطريقة ما بين العمودين من فناء الخباء. وكلما كبر الخباء وكثرت عمادهُ وطالت اطنابه دل على مكانهِ في القبيلة كرامة وشرافة واصل. ولبعض رؤساء القبائل بيوت ذات سبعين عموداً فتراها كالجبال لا يرى آخرها ومثل هذه البيوت يكون على ضفاف الفرات لبعض مشائخهِ

وضع الطعام في صحن كبير رصفت فيهِ الارغفة مستديرة على ثلاثة صفوف متراكبة وفي قطر الدائرة قطع من اللحم — وهم لا يبالغون في طبخ اللحم — صب

عليها المرق فجلسنا حول الصحن جلسة الاعراب واكلنا اكلاً ذريعاً وجيء بعذق فشربناهُ ولم نكد نروى وكان الظمأ قد اشتد بنا ثم انتشرنا كل الى خيمتهِ وكانت ليلة هادئة

٨ منهُ — سألنا هؤلاء الاعراب عن اخصب البلاد التي طوقناها فذكرنا لهم (القمراء) فقوضوا اثيابهم فمررنا وشرقنا وجاوزنا موضعاً اسمهُ (حوران) فطوراً سهلاً وطوراً جبلاً وفي آخر حوران وردنا احساء فوجدنا الاعراب يزدحمون عليها ويتقاتلون وملأنا بعض اسقيتنا وسرنا فجئنا موضعاً يسمونهُ (معيشر) وبينما نحن ندخلهُ اعترضنا رجل من شيوخ عنزة يدعى (بحري ابو زهرة) شيخ (السبعة) وهم من عنزة وطلب منا الخاوة فبعد اللتيا والتي وبعد خصام منا ومنهُ رضي بيسير من الدراهم واخذ بندقية وذهب تتبعهُ اللعنة

اما حوران فارض واسعة ذات جبال وقلاع واغوار وقد سرنا منها في ارض صعبة كثيرة الحجارة شديدة على الابل وكان منزلنا اليوم في معيشر وبتنا في واد من اوديتهِ المخيفة

٩ منهُ — شددنا في السير فجاوزنا عدة مواضع الاول (الهياج) والثاني (رجم الصابون) والثالث (معامج) وكلها سهول خصبة لولا قلة الغيث هذه السنة وقد كلت فيها الابل لما مسها من التعب والظمأ وقد قطعنا مرحلة كبيرة وكان مبيتنا (في معامج)

١٠ منهُ — في يومنا هذا مررنا (بقصر الخباز اليابس) ثم (بقصر الخباز الاخضر) وتعرض لنا أحد قطاع الطرق فرأى كثرتنا وسلاحنا فقت في عضده وتظاهر انهُ يسألنا عن الماء وعاد من حيث اتى. ولم نجد في طريقنا عشباً ولا ربيعاً بعد خروجنا من القمراء وقد نفد زادنا منذ أول أمس ونفد اينا علف الابل وقد طالت رحلتنا وماكان في حسابنا انها تطول حتى وقعنا في شدة من فقدان الزاد وقد نفد ماؤنا حتى ان الواحد منا لا يلق بلالاً وكان منزلنا الليلة (قصر الخباز الاخضر)

١١ منهُ — نهضنا صباح اليوم على ما بنا من جهد وسرنا طويلاً فوصلنا ماء يسمونهُ (زعروع) وهو آخر منزلة واول ماء جارٍ نردهُ

وزعزوع هذا موضع على بضع ساعات من كبيسة يرتادهُ الرعاة لخصبهِ وغزارة مائهِ وفيهِ عين معدنية طعمها ردىء تجري جرياً ضعيفاً كوشل القربة وقد المعنا بها وكان الرعاة مزدحمين على موردها اصداراً وايراداً

ثم اخذنا طريقنا الى كبيسة وبعد ساعة لاح لنا سواد نخلها فتباشرنا وبعد ساعات وصلناها والقينا عصا الترحال

كبيسة

بلفظ التصغير قرية من قرى العراق تابعة لمركز (الرمادي) او الدليم بعيدة عن الفرات بنحو ساعتين — ليست كالقرى فيها نحو ٨٠٠ دار و ٦٠٠٠ نسمة تحيط بها الحدائق وفيها ١٢ من عيون الماء المعدنية

وعلى هذه المياه يرورن زروعهم ونخلهم والنخل كثير فيها واشهر اهلها يعمل اغلب الادوات البيتية من سعف النخل وخوصهِ فهم ينسجونهُ حصراً ويصنعون اوانٍ للماء كالتلل والجرار واوانٍ لغسل الثياب واسفاطاً ملونة جميلة ومغارف للماء يسمونها (دوالك) الواحدة (دولكه) بالتحريك واشياء لخزن الحنطة وتنقيتها ومزاود للاكل وحصراً يأكلون عليها يسمون واحدتها (سفرة). وبالجملة فاغلب اوانيهم من النخل وارضهم كبيسة مملحة لا ينبت فيها غير النخل وقليل من القمح وليس فيها فواكه

وفي كبيسة طرق ضيقة والرجال يجلسون على قارعة الطريق في الابكار والآصال يتجاذبون اطراف الحديث والنساء سافرات يلبسن الثياب الملونة من كل شكل قطعة يخطنها ويجعلنها ثوباً يعلقن الحلق الذهبية بانوفهن في الغضروف القائم في الانف ويكثرن الوشم في الحواجب والخدود والشفاه والذقون وبين الحاجبين وفي جميع البدن وهن يقمن باعمال البيت ويعاون رجالهن في الحدائق كسائر البدويات

١٢ منهُ — ارتحلنا الى هيت وهي قرية جميلة الموقع كثيرة الحدائق والجنان مبنية على شبه جبل مطل على الفرات وقد اعجبتنا كثرة ما فيها من المعادن والعيون والدوالي — سيأتي ذكرها — طرقها ضيقة مضروبة بالزفت (القار) الذي يذوب في ايام الصيف فيشتد الحر وكل بيوتها مبنية بالقار والجص فاذا انهدم بيت منها

اجتمع اهل القرية على بنائهِ بدون اجرة . اما البيوت فرديئة غير مبنية على ما يوافق شروط الصحة لهذا تجد اهلها صفراً نحاف الابدان قليلي النشاط اما الماء فحدث عن عذوبتهِ ولا حرج فهو ماء الفرات كانهُ العسل المصفى . ومعادن الكلس والملح والقار وملح الليمون والبورق والنفط كثيرة في هيت

وهناك موضع في ترابهِ حموضة يسمونهُ (تل السماق) كأنهُ ملح الليمون وفيها نوع من التراب يسمونهُ (طين خاوة) شرق هيت عند (عين الجرية) وهو طيب الرائحة مطهر مزيل للاوساخ يغسلون بهِ شعورهم كالصابون

وفي هيت من النخل الذي يثمر ما يزيد على ٣٥ الف نخلة ومن الناس ٥٠٠٠ نسمة و١٢٠٠ دار وفيها جامع اسمهُ جامع عمر الفاروق ومدرسة ابتدائية فيها ٧٠ طالباً بيوتها خالية من الاحشاش

وفي هيت قبور عديدة لرجال مشهورين منهم عبد الله ابن المبارك احد الصحابة الاجلاء وامية الضمري ونور الدين ابن زنكي والنبي ايوب والاربعون شهيداً وهم الذين اصيبوا في حادثة صفين المؤلمة ورأيناهم كيف يذيبون القار ويخلطونهُ بالرمل او بقار آخر رديء

وفي هيت انواع الزوارق وهي الشخاتير والسكالات والمشاحيف كلها تستعمل للنقل . والدوالي او النواعير كثيرة على ضفتي الفرات وفي هيت منها ما ينيف على ١٢٠ دالية كل واحدة مشتملة على عدة نواعير . تبنى الدوالي على جدار معترض في الفرات الى نصف النهر او اكثر ليجتمع الماء وتتحدر قوته على منافذ لهُ وضعت فيها النواعير فتدور متحركة بقوة الماء نهاراً وليلاً وتسقي الحدائق . وقد يشترك رجلان او اكثر في ناعورة واحدة فيقتسمون ماءها لكل واحد عدة ساعات . ولا تسمع في ليالي هيت الا اصوات النواعير التي ذكرتنا نواعير حماة في الشام

١٣ منهُ — وركبنا من هيت سيارة الى بغداد وهناك خاتمة المطاف

بغداد محمد الهاشمي